سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح

الله

منزه عن

الزمان والمكان

د. عمر عبد الله كامل

الجهة والمكان والزمان

قلنا فيما سبق أنه انتشرت في عصرنا مفاهيم خاطئة حول تفسير وفهم النصوص التي تتحدث عن الذات الإلهية المقدسة وكان السبب الرئيسي في ذلك اعتماد الخيال والوهم مصدراً للعقيدة والديانة، فتم قياس الغائب على الشاهد فأثبتوا لله حيزاً يشغله ومكانا يحويه مع إقرارهم بأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء فوقعوا في التناقض والاضطراب.

وكان من عمدتهم في إثبات المكان لله سبحانه: تفسيرهم الخاطئ للآية الكريمة ﴿الرحمن على العرش استوى ﴾[1] ، وأخواتها من الآيات ﴿ ...ثم استوى العرش... ﴾[2] ، وهن سبع آيات في القرآن الكريم، كان ذلك مع وجود التفسيرات العديدة اللائقة بذات الله سبحانه والمتفقة مع تنزيهه، والمؤيدة بالقرائن والدلائل في نفس سياق الآيات، إضافة إلى آيات التنزيه العامة القاطعة ﴿ ليس كمثله شيء﴾[3] ﴿ ...ولم يكن له كفواً أحد ﴾ الإخلاص آية (٤).

لذا قدمنا هذه الكلمات في إيضاح هذا المفهوم، فنقول مستعينين بالله سبحانه.

---

1 طه آية (٥)

2 الأعراف آية (٥٤)

3 الشورى آية (١١)

المكان

يطلق المكان على: الحيز الذي فيه الجسم والمحدود بأطراف الجـسم أمـا في الاصـطلاح فيقـول البيجوري: « والمكان عند أهل السنة هو: الفراغ الموهوم » أ هـ .

أي الفراغ الذي يشغله الجسم وتنفذ فيه أبعاده، وسماه موهوما لأنه لا يوجد إلا في الوهم بعـد أن يتخيله العقل بدون وجود الجسم فيه.

وفيه أقوال: متقاربة

أحدها: أنه السطح الباطن للجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوى عليه، كالسطح الباطن من الكوز المماس للسطح الظاهر من الماء الذي فيه.

قال الراغب: المكان عند أهل اللغة: (الموضوع الحاوي للشيء).

الثاني: أنه الأبعاد التي بين غايات الجسم.

الثالث: أنه بعد مفروض مقدر.

الرابع: أن المكان هو الخلاء، وهو رأي علماء الكلام.

ذكر هذه الأقوال الأربعة الزركشي في شرحه على جمع الجوامع ونقلناها عنه باختصار.

فالمكان بهذا مستحيل في حق الله سبحانه، لأنه لو كان له مكان لكان جـسما، ولكـان ممـاثلا لمخلوقاته وهذا محال ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾، ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾.

ويلاحظ أن نفي المكان يستلزم نفي الحدود عن ذات الله تعالى وكذا نفي الجهة.

ومن المعلوم أنه عز وجل واجب الوجود كان ولا زمان ولا مكان وهما –أعني الزمـان والمكـان- مخلوقان، وبالضرورة أن من هو في مكان فهو محيط به ويكون مقدراً ومحدوداً، وهو سبحانه وتعالى منزه عن التقدير والتحديد، وعن أن يحويه شيء وأن يحدث له صفه، تعالى الله عما يصفون وعما يقولون علواً كبيراً.

قال القاضي أبو يعلى الحنبلي في كتابه (المعتمد): أن الله سبحانه وتعالى وتقدس لا يوصف بمكان.

فإن قيل يلزم من نفي المكان نفي الجهات ونفيها يحيل وجوده؟

فالجواب:- وأيضاً إن كان الموجود يقبل الاتصال والانفصال فمسلم، فأما إذا لم يقبلهما فليس خلُوه من طريقي النقيض بمحال، ويوضح هذا أنك لو قلت: كل موجود لا يخلو أن يكون عالمـاً أو جـاهلاً قلنا: إن كان ذلك الموجود يقبل الضدين فنعم، فأما إذا لم يقبلهما كالحائط مثلاً فإنه لا يقبل العلـم ولا الجهل، ونحن ننزه الذي ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى كما نزه نفسه عن كل ما يدل على الحدوث،



وما ليس كمثله شيء لا يتصوره وهم ولا يتخيله خيال، والتصور والخيال إنما هما من نتائج المحسوسات والمخلوقات، وتعالى عن ذلك.

الزمان

يقول الإمام فخر الدين الرازي:

"قوله تعالى ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾[1] وهذا مشهر بأن المكان وكل مـا فيـه ملك لله تعالى.

وقوله ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾[2] من سورة الأنعام وذلك يدل على أن الزمان وكل مـا فيه ملك الله تعالى.

ومجموع الآيتين يدلان على أن المكان والمكانيان والزمان والرمانيات كلها ملك لله تعالى، وذلـك يدل على تـ يهه عن المكان والزمان وهذا الوجه ذكره أبو مسلم الأصفهاني رحمه الله في تفسيره"

أ.هـ. من أساس التقديس .

---

[1] الآية (١٢) من سورة الأنعام

[2] الآية (١٣)

التنزيه عن المكان والجهة والزمان
في أقوال الصحابة والتابعين والأئمة

١- قال الصحابي الجليل والخليفة الراشد سيدنا علي رضي الله عنه (٤٠هـ) ما نصه: (كان-الله- ولا مكان، وهو الآن على ما- عليه- كان أ. هـ.. أي بلا مكان[1].

٢- وقال أيضاً: ﴿إن الله تعالى خلق العرش إظهاراً لقدرته لا مكاناً لذاته﴾ أ.هـ[٢].

٣- وقال أيضاً: ﴿ من زعم أن إلهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود ﴾ أ.هـ.. (المحدود: ما له حجم صغيرا كان أو كبيراً[٣].

٤- وقال التابعي الجليل الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم (٩٤ هـ) ما نصه: ﴿ أنت الله الذي لا يحويك مكان ﴾ أ هـ[٤].

٥- وقال أيضاً: ﴿ أنت الله الذي لا تحد فتكون محدوداً ﴾ أ.هـ.. [٥].

٦- وقال الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين رضوان الله عليهم (١٤٨هـ) ما نصه: ﴿ من زعم أن الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء فقد أشرك. إذ لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً- أي مخلوقاً ﴾ أهـ[٦].

٧- قال الإمام المجتهد أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه (١٥٠هـ) أحد مشاهير علماء السلف وإمام المذهب الحنفي ما نصه: ﴿ والله تعالى يرى في الآخرة، ويراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم بلا تشبيه ولا كيفية، ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة ﴾[٧].

٨- وقال أيضاً في كتابه الوصية: ﴿ ولقاء الله تعالى لأهل الجنة بلا كيف ولا تشبيه ولا جهة، حق ﴾ أ.هـ[٨].

٩- وقال أيضاً: ﴿ قلت: أرأيت لو قيل أين الله تعالى؟ فقال- أي أبو حنيفة-: يقال له كان الله

---

(1) الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي (ص٣٣٣).

(2) الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي (ص٣٣٣).

(3) حلية الأولياء: ترجمة علي بن أبي طالب (١/٧٣).

(4) إتحاف السادة المتقين (٣٨٠/٤).

(5) إتحاف السادة المتقين (٣٨٠/٤).

(6) ذكره القشيري في رسالته المعروفة بالرسالة القشيرية (ص٦).

(7) ذكره في الفقه الأكبر، أنظر شرح الفقه الأكبر لملا علي القاري (ص١٣٦-١٣٧).

(8) الوصية: (ص٤)، ونقله ملا علي القاري في شرح الفقه الأكبر (ص١٣٨).

تعالى ولا مكان قبل أن يخلق الخلق، وكان الله تعالى ولم يكن أين ولا خلق ولا شيء، وهو خالق كـل شيء﴾ أ.هـ.. [1].

١٠- وقال أيضاً: ﴿ ونقر بأن الله سبحانه وتعالى على العرش استوى من غير أن يكون له حاجـة إليه واستقرار عليه، وهو حافظ العرش وغير العرش من غير احتياج، فلو كان محتاجاً لما قدر على إيجـاد العالم وتدبيره كالمخلوقين، ولو كان محتاجاً إلى الجلوس والقرار فقبل خلق العرش أين كان الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴾ أ.هـ.. [2].

١١- وقال الإمام المجتهد محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه إمام المذهب الشافعي (٢٠٤ص) ما نصه: ﴿ إنه تعالى كان ولا مكان فخلق المكان وهو على صفة الأزلية كما كان قبل خلقه المكان لا يجوز عليـه التغيير في ذاته ولا التبديل في صفاته ﴾ أ.هـ.. [3].

١٢- وأما الإمام المجتهد الجليل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) رضي الله عنه إمـام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة، فقد ذكر الشيخ ابن حجر الهيثمي أنه كان من المنزهين لله تعـالى عن الجهة والجسمية، ثم قال ابن حجر ما نصه: ﴿وما اشتهر بين جهلة المنسوبين إلى هذا الإمام الأعظم المجتهد من أنه قائل بشيء من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراء عليه ﴾ أ.هـ.. [4].

١٣- وكذا كان على هذا المعتقد الإمام شيخ المحدثين أبو عبد الله محمد ابـن إسماعيـل البخـاري صاحب الصحيح (٢٥٦هـ) فقد فهم شراح صحيحه أن البخاري كان ينزه الله عن المكان والجهة.

١٤- وقال الإمام الحافظ الفقيه أبو جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي الحنفي (٣٢١هـ) في رسالته (العقيدة الطحاوية) ما نصه: ﴿ وتعالى- أي الله- عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ﴾ أ.هـ..

١٥- وقال الحافظ محمد بن حبان (٣٥٤هـ) صاحب الصحيح المشهور بصحيح ابن حبـان مـا نصه: ﴿ الحمد لله الذي ليس له حد محدود فيحتوى، ولا له أجل معدود فيفنى، ولا يحيط بـه جوامـع المكان ولا يشتمل عليه تواتر الزمان ﴾ [5].

---

(1) الفقه الأبسط ضمن مجموعة رسائل أبي حنيفة (ص٢٥).

(2) كتاب الوصية، ضمن مجموعة رسائل أبي حنيفة (ص٢)، وملا علي القاري في شرح الفقه الأكبر (ص٧٥) عند شـرح قـول الإمام: ﴿ ولكن يده صفته بلا كيف ﴾ .

(3) إتحاف السادة المتقين (٢٤/٢).

(4) الفتاوى الحديثية (ص١٤٤).

(5) الثقات (١/١).

١٦- وقال أيضاً ما نصه: ﴿ كان- الله- ولا زمان ولا مكان ﴾ أ.هـ..[١].

١٧- وقال أيضاً: ﴿ كذلك يـ لـ- يعني الله- بلا آلة ولا تحرك ولا انتقال من مكان إلى مكـان ﴾ أ.هـ.[٢].

١٨- وقال الشيخ أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي (٣٨٨هـ) صاحب (معالم السنن) ما نـصه: ﴿ وليس معنى قول المسلمين إن الله على العرش هو أنه تعالى مماس له أو متمكن فيه أو متحيز في جهـة من جهاته، لكنه بائن من جميع خلقه، وإنما هو خبر به التوقيف فقلنا به ونفينا عنه التكييف إذ ﴿ لـيس كَمِثْلِهِ شيءٌ وهو السمِيع البصِير ﴾[٣].

١٩- وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الشافعي (٤٥٨هـ) ما نصه: ﴿والـذي روى في آخر هذا الحديث[٤] إشارة إلى نفي المكان عن الله تعالى، وأن العبد أينما كان فهو في القرب والبعـد من الله تعالى سواء، وأنه الظاهر فيصح إدراكه بالأدلة، الباطن فلا يصح إدراكه بالكون في مكان.

واستدل بعض أصحابنا في نفي المكان عنه بقول النبي (ﷺ) ﴿ أنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء ﴾، ﴿ وإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان ﴾ أ.هـ[٥].

٢٠- وقال أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة في زمانه (٥١٣هـ) ما نصه. ﴿ تعـالى الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة، هذا عين التجسيم، وليس الحق بذي أجزاء وأبعاض يعالج ـا ﴾ أ.هـ[٦].

٢١- وقال القاضي الشيخ أبو الوليد محمد بن أحمد قاضي الجماعة بقرطبة المعروف بابن رشد الجد المالكي (٥٢٠هـ) ما نصه: ﴿ ليس- الله- في مكان، فقد كان قبل أن يخلق المكان ﴾ أ.هـ. ذكـره ابن الحاج المالكي في كتابه ﴿ المدخل ﴾[٧].

٢٢- وقال الحافظ المؤرخ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشهير بابن عـساكر الدمـشقي

---

(1) صحيح ابن حبان، أنظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٤/٨).

(2) المصدر السابق (١٣٦/٢).

(3) أعلام الحديث: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هو الذِي يبدأُ الْخلْق ثُم يعِيده وهو أَهونُ علَيهِ ﴾ (سورة الروم، ٢٧) (٢/ ١٤٧).

(4) أي الحديث: ﴿ والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السابعة لهبط على الله تبارك وتعالى ﴾.
وهو حديث ضعيف

(5) الأسماء والصفات (ص٤٠٠).

(6) الباز الأشهب: الحديث الحادي عشر (ص٨٦).

(7) المدخل لابن الحاج المالكي: فصل في الاشتغال بالعلم يوم الجمعة (٢/١٤٩).

(٥٧١هـ) في بيان عقيدته التي هي عقيدة أبي الحسن الأشعري نقلاً عن القاضي أبي المعالي بن عبد الملك ما نصه: ﴿ قالت النجارية: إن البارئ سبحانه بكل مكان من غير حلول ولا جهة.

وقال الحشوية والمجسمة: إنه سبحانه حالّ في العرش وإن العرش مكان له وهو جالس عليه فسلك طريقة بينهما فقال: كان ولا مكان فخلق العرش والكرسي ولم يحتج إلى مكان، وهو بعد خلق المكان كما كان قبل خلقه ﴾ أ.هـ.. [1].

٢٣- قال الإمام الحافظ المفسر عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي الحنبلي (٥٩٧هـ) ما نصه: ﴿ الواجب علينا أن نعتقد أن ذات الله تعالى لا يحويه مكان ولا يوصف بالتغير والانتقال ﴾ أ.هـ [2].

٢٤- وقال أيضاً: ﴿ افترى أقوام يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحس، كقول قائلهم: ينزل بذاته إلى السماء وينتقل، وهذا فهم رديء، لأن المنتقل يكون من مكان إلى مكان، ويوجب ذلك كون المكان أكبر منه، ويلزم منه الحركة، وكل ذلك محال على الحق عز وجل ﴾ أ.هـ [3].

٢٥- وقال الشيخ أبو منصور- فخر الدين عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن عساكر (٦٢٠هـ) عن الله تعالى ما نصه: ﴿ موجود قبل الخلق ليس له قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا أمام ولا خلف، ولا كل ولا بعض، ولا يقال متى كان ولا أين كان ولا كيف، كان ولا مكان، كون الأكوان، ودبر الزمان، لا يتقيد بالزمان، ولا يتخصص بالمكان ﴾ أ.هـ [4].

٢٦- وقال الشيخ جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي (٦٤٦هـ) مثنيا على العقيدة التي كتبها الشيخ العز بن عبد السلام ومما جاء في هذه العقيدة قول العز بن عبد السلام: ﴿ كان- الله- قبل أن كون المكان ودبر الزمان، وهو الآن على ما عليه كان ﴾ أ.هـ

ومن جملة ما ذكره في ثنائه قوله: ﴿ ما قاله ابن عبد السلام هو مذهب أهل الحق، وأن جمهور السلف والخلف على ذلك، ولم يخالفهم إلا طائفة مخذولة، يخفون مذهبهم ويدسونه على تخوف إلى من يستضعفون علمه وعقله ﴾ أ.هـ [5].

---

(1) تبيين كذب المفتري (ص١٥٠).

(2) دفع شبه التشبيه (ص٥٨).

(3) صيد الخاطر (ص٤٧٦).

(4) طبقات الشافعية الكبرى (١٨٦/٨).

(5) طبقات الشافعية الكبرى: ترجمة العز ابن عبد السلام (٢٣٧/٨).

٢٧- وقال الشيخ العز بن عبد السلام الأشعري الملقب بسلطان العلماء (٦٦٠هـ) ما نـصه: ﴿ ليس- أي الله- بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، ولا تحيط بـه الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات، كان قبل أن كون المكان ودبر الزمان وهو الآن على مـا عليه كان ﴾ أ.هـ [(١)].

٢٨- وقال الحافظ أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي الشافعي الأشعري (٦٧٦هـ) ما نصه ﴿ إن الله تعالى ليس كمثله شيء، منزه عن التجسيم والانتقال والتحيز في جهة وعن سـائر صـفات المخلوق﴾ أ.هـ [(٢)].

٢٩- وقال العلامة الأصولي الشيخ أحمد بن إدريس القَرافي المالكي المصري (٦٨٤هـ) أحد فقهاء المالكية ما نصه: ﴿ وهو- أي الله- ليس في جهة، ونراه نحن وهو ليس في جهة ﴾ أ.هـ [(٣)].

٣٠- وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي الأشعري (٨٩٢هـ) ما نصه: ﴿ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محالاً على الله أن لا يوصف بالعلو، لأن وصفه بالعلو من جهة المعـنى والمـستحيل كون ذلك من جهة الحس، ولذلك ورد في صفته العالي والعلي والمتعالي، ولم يرد ضد ذلك وإن كان قد أحاط بكل شيء علماً جلّ وعز ﴾ أ.هـ [(٤)].

٣١- وأيضاً عند شرح حديث النزول ما نصه: ﴿ استدل به من أثبت الجهة وقال هي جهة العلـو، وأنكر ذلك الجمهور[(٥)] لأن القول بذلك يفضي إلى التحيز، تعالى الله عن ذلك ﴾ أ.هـ [(٦)].

٣٢- وقال أيضاً: ﴿ فمعتمد سلف الأئمة وعلماء السنة من الخلف أن الله منزه عن الحركة والتحول والحلول، ليس كمثله شيء ﴾ أ.هـ [(٧)].

٣٣- وقال الشيخ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني (٩٣٣هـ) في شرحه علـى صحيح البخاري ما نصه :﴿ ذات الله منزهة عن المكان والجهة ﴾ أ.هـ [(٨)].

٣٤- وقال أيضاً ما نصه: ﴿ قول الله تعالى ﴿ وجوه ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿ يومئذٍ﴾ يوم القيامـة

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى: ترجمة العز ابن عبد السلام (٢١٩/٨).

(2) شرح صحيح مسلم (٣/١٩).

(3) الأجوبة الفاخرة (٩٣).

(4) فتح الباري (١٣٦/٦).

(5) أي أهل السنة والجماعة.

(6) فتح الباري (٣٠/٣).

(7) فتح الباري (١٢٤/٧).

(8) إرشاد الساري (٤٥١/١٥).

﴿ناضِرة ﴾ حسنة ناعمة ﴿ إلى ربها ناظِرةٌ ﴾ بلا كيفية ولا ثبوت مسافة.أ.هـ[١].

٣٥- وقال الشيخ القاضي زكريا الأنصاري الشافعي الأشعري (٩٢٦هـ) في شرحه على (الرسالة القشيرية) ما نصه: ﴿ إن الله ليس بجسم ولا عرض ولا في مكان ولا زمان﴾ أ.هـ[٢].

٣٦- وقال أيضا عن الله ما نصه: ﴿ لا مكان له كما لا زمان له لأنه الخالق لكل مكان وزمـان ﴾ أ.هـ[٣].

٣٧- وقال في كتابه فتح الرحمن ما نصه: ﴿ هو تعالى مـ ـه عن كل مكان ﴾ أ.هـ[٤].

وعلى ذلك درج جمهور علماء الأمة الذين يعتمد بكلامهم وإنما نقلنا نماذج قليلة تمثل الجمهور.

(1) إرشاد الساري (٤٦٢/١٥).

(2) حاشية الرسالة القشيرية (ص٢).

(3) حاشية الرسالة القشرية (ص٥).

(4) فتح الرحمن: تفسير سورة الملك (٥٩٥).

فصل في معاني الاستواء وآيات الاستواء

الاستواء في اللغة على وجوه

١- بمعنى استقر[1]: ومنه قوله تعالى: ﴿ واستوت على الجودي [2]﴾ وهذه صفة المخلوق الحادث، كقوله تعالى: ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهره ﴾[3] وهو نزه نفسه عن ذلك في كتابه العزيز بآت الت يه ونفي التشبيه والتمثيل.

٢- ومنها القصد إلى الشيء: ومنه قوله تعالى: ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ الآية ١١ من سورة فصلت قصد خلقها.

ويكون المعنى كما بينه الإمام أبو نصر عبد الرحيم القشيري: ﴿ ثم استوى على العرش﴾: على تأويله الاستواء بالقصد قول الشاعر:

---

(1) والاستقرار وهو المعنى الحقيقي المتبادر من لفظ (الاستواء) في اللغة وبقية المعاني المذكورة لهذا اللفظ هي صور بلاغية مقتبسة من هذا المعنى الحقيقي يقول الإمام تقي السبكي في السيف الصقيل: ﴿ والمعنى الثاني للاستواء في اللغة (الجلوس والقعود) ومعناه مفهوم من صفات الأجسام لا يعقل منه في اللغة غير ذلك والله م ه عنها، ومن أطلق القعود وقال إنه لم يرد صفات الأجسام قال شيئاً لم تشهد به اللغة فيكون باطلا، وهو كالمقر بالتجسيم المنكر له فيؤاخذ بإقراره ولا يفيد إنكاره.

وأعلم أن الله تعالى كامل الملك أزلا وأبداً ولكن العرش وما تحته حادث فإن قوله ﴿ ثم استوى عل العرش ﴾ لحدوث العرش لا لحدوث الاستواء ﴾ أ.هـ.ص ٨٧.

وقد ورد تفسير (الاستواء) بـ(الاستقرار والجلوس) في خبر موضوع على ابن عباس ورواه الإمام البيهقي في (الأسماء والصفات). عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح- وهذه سلسلة الكذب عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ يقول: (استقر على العرش)ويقال (امتلأ به) ويقال (قائم على العرش) وهو السرير) وأكد الإمام البيهقي بطلان هذا الخبر يقول المفسر النيسابوري رحمه الله في تفسير الآيات ٥٣ من سورة الأعراف أن قوله تعال: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ تدل على قدرته وحكمته وكذا قوله تعالى ﴿ يغشى الليل والنهار ﴾ الآيات فلو كان المراد من (الاستواء) هو (الاستقرار) كان أجنبيا عما قبله وعما بعده لأنه ليس من صفات المدح، إذا لو استقر علي بق وبعوض صدق عليه أنه استقر على العرش.

فإذن المراد بالاستواء كما قدرته في تدبير الملك والملكوت حتى تصير هذه الكلمة مناسبة لما قبلها ولما بعدها أ.هـ من تفسيره (١٠٧/٨).

قلنا في ذيب واختصار شرح السنوسية بعض ما يستحيل على الله عز وجل[هـ] أو يتقَيد بِمكانٍ.

ويستحيل على الله تعالى أن يتقيد بمكان.

وحقيقة المكان: هو استقرار جرم على جرم.

فالمستقر عليه هو المكان لأن الله لو كان له مكان لكان جرماً، ولو كان جرماً لانتفت المخالفة؛ ونفي المخالفة عن الله تعالى محال.

ولاحظ أن نفي المكان يستلزم نفي الحدود عن ذات تعالى كما نص عليه أهل السنة.

(2) الآية رقم ٤٤ من سورة هود.

(3) الآية رقم ١٣ من سورة الزخرف

ثم استويتم لنـا ترمـون انكبنـا   بغيا وفي البغي إن لم ينتهوا النكل.أهـ

قال الإمام الزركشي في (البرهان في علوم القرآن): ﴿ قال الأستاذ والـصواب مـا قالـه الفـراء والأشعري وجماعة من أهل المعاني أن معنى قوله (استوى) أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه فسماه استواء كقوله ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ أي قصد وعمد إلى خلق السماء فكذا هاهنا قال: وهذا القول مرضى عند العلماء ليس فيه تعطيل ولا تشبيه ﴾.

الأستاذ المشار إليه في النقل السابق هو إسماعيل الضرير المفسر المقرئ المحدث.

قلت: قد ذكر العلامة الخضر: الشنقيطي أيضاً أن (على) تأتي بمعنى (الباء) وبمعنى (إلى) ثم قـال: ﴿ وحروف الجر وتعاقبها في كلام العرب غير محصور ﴾[1] أهـ

٣- ومنها إتمام الشيء: ومنه قوله تعالى: ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾[2] ويكون معنى قوله تعالى ﴿ على العرش استوى ﴾: استتم خلْقه بالعرش فلم يخلق خارج العرش شيئاً وجميع ما خلق ويخلـق دنيـا وأخرى لا يخرج عن دائرة العرش لأنه حاو لجميع الكائنات ومع ذلك فلا يزن في مقدوراته تعـالى ذرة فأني يكون مستقَراً قال تعالى ﴿ولما بلغ أشده واستوى ﴾ وقال ﴿ كزرع أخرج شطئه فآزره فاسـتغلظ فاستوى على سوقه ﴾[3]

فعلى هذا التقدير يكون فاعل (استوى) ضميراً عائداً على المصدر المفهوم من لفظ (خلـق) في أول كل آية من الآيات الست أما الآية السابعة ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترو ا ثم استوى على العرش ﴾[4]

وهذا جائز لغة قال تعالى ﴿...على أن لا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[5] فالضمير ﴿ هو ﴾ يعود على العدل المفهوم من فعل الأمر ﴿أعدلوا﴾.

و ﴿ على ﴾ بمعنى الباء في قوله تعالى ﴿ على العرش ﴾ فيكون المعنى: استتم واستكمل الخلق بالعرش فلم يخلق شيئاً فوق العرش وإتيان ﴿ على ﴾ بمعنى (الباء) وارد في كتاب الله تعالى ﴿ حقيق علـى أن لا

1 استحالة المعية بالذات ص ٣٦٣.

2 الآية ١٤ من سورة القصص.

3 الفتح: ٢٩ أي استتم ذلك الزرع وقوى.

4 الرعد٢ فيعود الضمير على مصدر (رفع).

5 الآية ٨ من سورة المائدة.

أقول على الله إلا الحق ﴾[1] فقوله ﴿على أن ﴾ هنا معناه ﴿ بأن ﴾ وقد قرئ في بعـض القـراءات ﴿ حقيق بي ﴾ ذكر هذا التأويل الإمام أبو طاهر القزويني ونقله عنه العلامة محمد الخـضر الـشنقيطي في (استحالة المعية بالذات)[2] وقال عنه أنه من أحسن التأويلات ومخرج من كـل شـبهة واردة. ونقلـه وارتضاه أيضاً الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري) واختاره وارتضاه دون سواه ابن حزم رحمه الله في كتابه (الفصل).

٤- التأويل الرابع : الاستعارة التمثيلية

الاستعارة التمثيلية – كما يقول علماء البيان – "تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشا ة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي" وكما هو معلوم فليس هناك قرينة أقوى من ت يه الله سـبحانه عن الجسمية ولوازمها.

وفي مسألتنا هذه – الاستواء – يكون التأويل بأن يشبه شأنه تعالى في تدبيره لأمر ملكـه ونفـاذ سلطانه على كافة خلقه بحال الملك العظيم المستوي على عرش مملكته النافذ السلطان على كل من فيها، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

وهذا يعد من أقوى التأويلات في مسألة الاستواء

ومن أمثلة الاستعارة التمثيلية ما يقال لمن يأتي بالقول الفصل:

(قطعت جهيزة قول كل خطيب) من غير أن يكون هناك جهيزة ولا خطيب وإنما هو تشبيه حـال بحال

أو كقول أحدهم لمن رآه يعزم على الأمر مرة ويعدل عن عزمه أخرى: (مالي أراك تقـدم رجـلا وتؤخر أخرى؟!) ولا رجل هناك ولا تقديم لها ولاتأخير، وإنما هو معنى الإقدام والإحجام أورد في هذه الصورة الحسية، وكذا يقال (استوى على عرش المملكة الفلانية) إذا تولى ملكها، ويقال (ثل عرشه) إذا زال عنه الملك.

وكثر ذلك حتى أصبح لا يكاد يلتفت الذهن إلى المعنى الأصلي الأول المنقول منه، فإذا سمع العربي:

(استوى فلان على عرش العراق أو على عرش مصر) لم يخطر بباله قعود على عرش ولا جلوس على سرير بل يسبق فهمه إلى المراد ـذا التركيب....

٥- التأويل الخامس: الاستواء هو الاعتدال

---

1 الأعراف: ١٠٥

2 ٣٦٠-٣٦٣

يقول د. إبراهيم عبد الرحمن: أن يكون من الإعتدال بمعنى القيام بالعدل في الخلق والتـدبير أ.هـ ـ يقول الإمام ابن اللبان: ﴿ قد قررنا (استوى) افتعل من السواء وأصله (العدل) وحقيقة الاستواء المنسوب إلى ربنا في كتابه بمعنى العدل، أي: أقام العدل

وأصله من قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾.

والعدل هو استواؤه ويرجع معناه إلى أنه أعطى بعزته كل شيء خلقه موزوناً بحكمته للتعـرف إلى خلقه بوحدانيته ولذلك قرنه بقوله ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ والاسـتواء المـذكور في كتابـه استواءان: استواء سماوي، واستواء عرشي... ﴾ إلى أن قال:

﴿ وأما الاستواء العرشي فهو أنه تعالى قام بالقسط معترفاً بوحدانيته في عالمين: عالم الخلـق وعـالم الأمر وهو عالم التدبير ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ فكان استواؤه للتدبير بعد انتقاء عالم الخلق لقولـه ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ و ـذا تم سِر تعدية الاستواء العرشي بعلى لأن التدبير للأمر لابـد فيـه مـن اسـتعلاء واستيلاء﴾ أ.هـ المقصود منه[1] ص٤١.

بين التفويض والتأويل

المحكم والمتشابه:

عرف العلماء المحكم من آيات القرآن الحكيم بأنه ما كان راجح الدلالة بنفسه أو ما نزل م لته من المؤلات تأويلا قريبا لا يصعب إدراكه على العامة فضلا عن الخاصة،: والمتشابه ما ليس كذلك.

وقد مثل العلماء للمتشابه: بآيات الصفات وآيات الاستواء على العرش وكونه في السماء وحديث الـ ول وآيات ذكر اليد والقدم والأصابع ،.....إلخ

وعن فهم وتفسير هذه النصوص يقول الإمام النووي عند شرحه لحديث الـ ول ح[١٦٨] (٧٥٨) من صحيح مسلم [كتاب صلاة المسافرين وقصرها] باب [صلاة الليل والوتر]:

﴿ هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء سبق ايـضاحهما في كتـاب الإيمان ومختصرهما: أن احدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأ ا حق على مـا يليق بالله تعالى وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تـ يه الله تعـالى عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق والثاني، مـذهب أكثـر المـتكلمين

[1] رد الآيات المتشا ات إلى الآيات المحكمات

وجماعات من السلف وهو محكي هنا عن مالك والأوزاعي أنها تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها فعلى هذا تأولوا هذا الحديث تأويلين أحدهما تأويل مالك بن أنس وغيره معناه تنزل رحمته وأمره وملائكته كما يقال : فعل السلطان كذا إذا فعله أتباعه بأمره والثاني أنه على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف.والله أعلم ﴾ أ.هـ

ويقول العلامة كمال الدين بن أبي شريف في شرحه على (المسايرة):

﴿ وأعلم أن كلام إمام الحرمين من الإرشاد يميل إلى طريق التأويل ولكنه في الرسالة النظامية اختار طريق التفويض حيث قال: ﴿ والذي نرتضيه رأيا وندين الله به عقد اتباع سلف الأمة فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها ﴾ وكأنه رجع إلى اختيار التفويض لتأخر الرسالة ومال الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى التأويل فقال في بعض فتاويه طريقة التأويل بشرطها أقربها إلى الحق ويعني بشرطها أن يكون على مقتضي لسان العرب وتوسط ابن دقيق العبد فقال يقبل التأويل إذا كان المعنى الذي أول به قريبا مفهوما من تخاطب ويتوقف فيه إذا كان بعيدا وجرى شيخنا المصنف على التوسط بين إن تدعو الحاجة إليه لخلل في فهم العوام وبين أن لا تدعو الحاجة لذلك. ﴾[(1)] **أ.هـ**

سبب إحجام كثير من الصحابة والتابعين عن التأويل:

قال رسول الله ﷺ ﴿ من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ ﴾ رواه ابو داود والترمذي والنسائي.

وقال ﴿ من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار ﴾ وفي رواية ﴿ اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار﴾ رواه الترمذي حديث حسن.

وقد حمل العلماء النهي على وجهين:

الأول: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل عن طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح من القرآن ذلك المعنى سواء كان عالما بما يصنعه من التلبيس على الناس أم لا.

وقد استعمل أهل البدع من القدرية والباطنية ومن شابههم هذا الأسلوب للتغرير بالناس ودعوتهم إلى باطلهم.

الثاني: أن يسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق

---

(١)ص٣٥- ٣٦

بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذق والإضـمار والتقـديم والتأخير وغير ذلك.

ومن هذين النصين يتبين الدواعي والأسباب في إحجام وامتناع أغلب السلف عن التأويل:

١) روى ابن جرير الطبري باسناد صحيح عن انس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿عبس وتولى ﴾ فلما آتى على هذه الآية ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟، فقال لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف.

٢) وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق ﵁ عن قولـه تعالى ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ فقال: أي سماء تظلني وأرض تقلني إن قلت في كتاب الله مالا أعلم.

ذكرهما ابن كثير في تفسيره لسورة (عبس)

فما بالكم إذا بآيات المتشابه التي تتحدث عن صفات الله تعالى؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾

فصل: كلام المفسرين

ولننتقل الآن إلى كلام المفسرين حول الآية الكريمة:

١- قال ابن كثير في تفسيره: « وأما قوله تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام ومذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي قال من شبه الله بخلقه كفر ومن وصف الله بما لم يصف به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفي عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى »

٢- وفي الدر المنثور للسيوطي: « وأخرج ابن مردويه واللالكائي في السنة عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها في قوله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به إيمان والجحود كفر.

وأخرج البيهقي عن أحمد بن أبي الحواري قال سمعت سفيان بن عيينة يقول كلما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه.

٤- وفي الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن محمد بن مخلوف الثعالبي: «والمعتقد في هذا أنه سبحانه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده استوى منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته كان الله ولا شيء معه كان سبحانه قبل أن يخلق المكان والزمان وهو الآن على ما عليه كان » .

خاتمة

تبين مما سبق أن رب العزة سبحانه وتعالى تـ ه عن المكان والمكانيان وعن الزمان والرمانيات فهـو سبحانه خالق كل شيء ومقدره تقديرا جلت ذاته المقدسة وتعالت عن التقدير والإحاطة سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الفهرس